المقالة التاسعة عشر[1]
في معرفة الجهاد
وهي رسالة بعث بها إلى أولوجيوس العابد

أيها الأخ لما نظرت ثمر الطاعة ، بادرت أن أكتب إليك عن الأشياء التي أمرتني بتلخيصها .
تقوى الرب ابتداء صالح .
الشيخوخة الحسنة مكرمة في النفس المحبة المسيح .
من يصغِ إلى ذاته في كل مكان يسلم .
من يحب أحاديث العالم ، ما بغض العالم .
الحطب يشعل النار ويزيد التهابِها ، والأحاديث العالمية تنهض الآلام في قلب العابد .
أيها الأخ إن كنت تؤثر أن تنفع القاصدين إليك ، فلا تضر ذاتك .
من يحب محادثة النساء ، يستنهض على ذاته شيطان الزنا .
إذا سمع والداك عنك سمعاً صالحاً ، يسران أكثر من سرور النبيذ وطرب الخمر .
من يحب السكر ؛ يخسر فوائد كثيرة ، وقد قيل أنه يعمل أشياء ما لا يجب افتعالها ، ويبدد ثروته ، ويُدفع إلى الأعداء مثل غريب لأن السكر أعمى ذهنه .
أيها الأخ صر ورعاً ، فإن الورع يولد سجية سلامية ، والسجية السلامية تنتج عدم التألم ، وليكن ورعك مقترناً بالتواضع ، حتى تصير عابداً محقاً ، وترث المحبة والعفة .
أيها الأخ إن كثرة الكلام تسود الذهن وتظلمه ، وإذا أظلم الذهن أنقاد إلى عدم الحياء ، وعدم الحياء هو أم الزنا .
من يحب السكوت يلبث بلا قلق ، ولا يغيظ قريبه ، أما الضحك والدالة يضران المبتدئ كمضرة السم القاتل ، ولا يوافقانه أصلاً ، لأن الرب إنما طوب الذين يبكون وينوحون .
إن انغلاب العابد أن يسمع دفعتين على المائدة : أسكت .
حب الصمت يا أخي ؛ ليثبت الورع عندك .
أحفظ التورع ؛ ليصونك من الزنا .
من يجاوب الرئيس ولا يخضع له ، فلا يبطئ أن يتكردس في المساوئ .
من يطع وعظ من هو أكبر منه ، يسر مع الصديقين .
من يفتخر بقوته ، يبعد عن ذاته معونة اللـه . أما المفتخر فليفتخر بالرب .
من يحب الشغب الذي يشغل الذهن ، ويبغض السكوت ، يحزن حزناً كثيراً . ومن يسكت بتواضع، يسر الرب .
من لا يقدم اختبار الوقوف في الصلاة الجامعة بثبات ، يخسر فوائد كثيرة ، ومن يقف بتورع وصبر، يستجاب له .
من يتكلم كلاماً باطلاً في أوان الصلاة الجامعة يحصل له لوم مضاعف ، لأنه يبطل من الصلاة والترتيل بالكلام .
من يفاوض ، يسبب لذاته خسارة .
من يحب النسك ، سيكون متوافر القوة . ومن يحب السكر ، يثبت في لا شيء .

---

[1] كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

من يبغض العمل ، فذاك فضولي هو ، لأن البطالة تسبب شهوات كثيرة ، ومن يحب العمل ، يبقى بلا حزن .
من يفتخر بجسامة شأن والديه ، فذاك غير مختبر ، لأنَهما في مصاف القتال لا ينفعانه .
أكرم أيها الأخ الصغار والكبار ليعليك الرب ، لأن من يواضع ذاته يُرفع . ذلل رأسك للرئيس وللمتقدمين في رفقة الإخوة ، أخضع بالرب فإن ثمر الخضوع مخافة اللـه ، والتواضع لا يظهر بأن تتواضع لمن هو أعظم منك شأناً بل بمنح الإكرام للصغار الأدنياء جداً .
فقد كتب : " أنا أشرف الذين يشرفونني ، ومن يستحقرني يهان " .
فنحن فلنشرف اللـه لكي ما يشرفنا مع جماعة قديسيه، وبماذا نشرفه؟ بحفظ قول وصاياه ، لأنه قد كتب : "ليس ملكوت اللـه بكلام بل بقوة" وأيضاً : " ليس كل من يقول يارب يارب يدخل ملكوت السماوات بل الذي يعمل مشيئة أبي الذي في السماوات " .
فقبل كل شيء أيها الأخ أتقِ اللـه بالحقيقة فإن تقواه يضئ عيني ذهنك، حب التواضع فإن التواضع الذي من أجل اللـه هو سور لا ينقب قدام وجه العدو، وصخرة مصادمة تكسر حيل الشيطان ونشاب الخبيث المحمي.
إن وضعت في فكرك أن تصبر من أجل الرب على السب والخسارة والازدراء ستكون كمحارب بطل مشتمل بالسلاح دائماً على المقاومين ، وإذا رآك حينئذ أعداؤك متخذاً مثل هذا الحرص يتساقطون من قدام وجهك .
إن شئت أن تحاضر بلا تعب ، فأحفظ طهارة جسدك مع المحبة ، لأن المحبة هي أم الفضائل ، والطهارة مصباح وعضد لها ، إن السكوت نور الفضائل ، وسورها مخافة اللـه .
فلنحفظ الآن أيها الأخ طهارة جسدنا بمخافة اللـه ليحصينا الرب مع ملائكته القديسين ، لأن من يحب الطهارة ، يسر به الروح القدس ، ويعطيه الصبر .
فالطهارة إذاً تقوم بالحمية والوداعة والسكوت بمحبة .
فلذلك نحتاج أن نبتعد عن كل أخ يسلك سيرة غير مرتبة ، لئلا نمنح الذين يبصروننا وهماً ، لأن الرسول يقول : " نتقدم فنفطن برؤيات حسنة أمام الرب والناس ، فإن كان أحد يحب السجس فنحن ليس لنا مثل هذه العادة ولا لكنائس اللـه " .
فلهذا يجب اضطراراً أن نقبل عظات الناس المتقين الرب ، ولا نرضي ذاتنا كما يعلمنا القائل : " كل واحد منكم فليرضي قريبه في الخير لإبتناء منفعته " . وأيضاً حتى يخجل المنتصب بإذائنا ، ولا يكون له أمر طالح يقوله عنا لأن رب المجد قد قال : " فليشرق نوركم هكذا أمام الناس ليعاينوا أعمالكم الحسنة فيمجدوا أباكم الذي في السماوات " .
ولا نضيع القداسة بحجة المواساة ، فإن للعدو عادة مثل هذه أن يبدل بالخير الشر ، لأن من يخطئ ويفتكر أن يكتم ذلك يطغي ذاته ، لأن ليس شئ خفياً لا يشتهر .
إن أخطر لك العدو شهوة بشرية فقل له : حاشا لي أن أُحزن الروح القدس الذي خُتمت به يوم الافتداء. فإنه قد كُتب : " كل خطية يصنعها الإنسان هي خارج جسده ، أما من يزني فإلى جسده يخطئ " .
أما القتال الصائر بالذهن ، فقد عرفته بعض المعرفة ، لأن أخاً قال له أخ : أن الأفكار الدنسة تقلقني .
فأجابه : أن الشيوخ القديسين قد أمروا قوماً أن يتركوا الأفكار كي تدخل إلى داخل وحينئذ يقاتلونَها ، أما الضعفاء كثيراً فأوصوهم أن لا يناجوها ألبته ، لكي لا بدوام الفكر يصعب ألم شفائه .
فقال حينئذ الأخ : وما معنى أن تترك الأفكار تدخل إلى داخل ، وحينئذٍ تقاتل ؟ فقال له : أسمع متى أحضر العدو لأحد فكراً قبيحاً أو فكراً دنساً ، في الحين تقيم له في الذهن امرأة جميل وجهها ، أو أحد الأشياء التي تفضي إلى الفساد ، فإذا رأى المحارب ذلك بالذهن ، لا ينزعج من مثل هذه الأفكار بل ينتصب مقابلها ، ويحارب بشهامة وبسرعة .

ثم يفتح لها ويغلق عليها ، فإذا صارت داخل مع الصورة التي حاربته بِها ، يقول للأعداء : أنه بِهذه الواقفة معكم آذيتموني كل يوم ، وخبلتم ذهني الآن أشاء أن أعرف بالدقة ما الحاجة إليها .
فيأمر أن يحضر له سكيناً بذهنه ، فإذا أخذها يفتح بِها بطنها قائلاً : أشاء أن أعرف أجمالاً أو نتناً وقيحاً ، فإذا فتح جوفها يجد داخله الأشياء التي نعرفها كلنا ، فتظهر بعض قباحة الشهوة .
فإذا شاهد المضادون انكسارها ، يحدثون شغباً مريدين أن يستحقروا فكر الأخ ، حتى إذا كدروا ذهنه بأفكار أُخر ، يبطلون الجهاد المنصوب ، خوفاً من أن يظهر خزيهم بالكمال .
فيقول المحارب المنتصب بإذائهم : لِمَ ترومون أن توردوا أشياء أخر عوض تلك ، فإنني لا أترككم أن تخرجوا إلى أن أفحص جملة الأمر بالتأكيد ، إن كان بالحقيقة أهلاً أن يُحب ما تمدحونه .
فحينئذ يحبس الأخ الجثة في الخزانة الباطنة ثلاثة أو أربعة أيام ، وبعدها يفتحها مريداً أن يعاين الجثة، فقبل أن يدخل إلى داخل ، تلتقيه النتانة التي لا تُحتمل ، فيسد بيده فمه ومنخريه ، ويشير للأفكار المضادة ومؤازري الخطيئة نِهاية الأمر . ثم يقول لهم : ماذا تجاوبون عن هذه ؟
فيخزون حينئذ ، وينحلون كدخان في الهواء ، ويصبح الأخ أعلى من الآلام ، مؤازراً من قبل النعمة، فيعترف للرب ويقول : أشكرك أيها الرب إلهي فإنك لم تسلمني إلى أيدي أعدائي بل خلصتني من شرك القانصين ، وأنارتني نعمتك لأتفطن بِهذه الرؤيات ، وأخلص بِها من شركهم .
فلنتخذ يا إخوتي مخافة اللـه نصب أعيننا كل حين لكي ما يسترنا ، لأنه خلواً من ستر اللـه لا يحسب الإنسان شيئاً ؛ فإن رداءة صناعة أعدائنا كثيرة ، لكن معونة اللـه المحيطة بالإنسان أكثر منها، ولا سمح لنا أن نبصرها بأعيننا .
فلنحب إذاً الإله الذي يعيننا ويخلصنا حباً بكل قلوبنا كما نحب أنفسنا، وليكن في عقلك أيها الأخ الحبيب كل يوم وفاتك ، أي فزع يشتمل النفس في ذلك اليوم .
يا أخي الحبيب إن كنت قد عملت شيئاً صالحاً في هذا العالم الذي سكنته ، إن كنت قد احتملت الحزن والتعيير من أجل الرب ، وصنعت الفضائل التي ترضيه ، تصعدها الملائكة مرفوقة بفرح عظيم إلى السماوات.
لأنَها مثل فاعل نشيط حريص ، عمل في كافة النهار ، ينتظر الساعة الثانية عشرة لكي ما يقبل بعد العمل أجرته ويستريح . هكذا نفوس الصديقين تنتظر ذلك اليوم ، أما نفوس الخطاة فيشتملها في تلك الساعة خوف وجزع بمنزلة مجرم قد قبض عليه الأعوان يقتادونه إلى مجلس القضاء.
لذلك ترتعد نفوس الظالمين في تلك الساعة لمعاينة عذاب الظُلمة البرانية الدهرية التي لا نَهاية لها.
وإن قال أحد : اطلقوني أمضي إلى ذلك العالم لأتوب ، فيسمع ، حيث كان لك زمان ولم تتب ، فالآن لم تتب ، حين فتح المقام للكافة لم تجاهد ، أفتروم الآن أن تجاهد ، فقد غُلقت سائر الأبواب ، وعبر زمان الجهاد ، أما قد سمعت القائل : " تيقظوا فإنكم لا تعرفون الساعة " .
فإذ قد تقدمنا وعرفنا هذا يا أخي الحبيب ، ما دام لنا زمان فلنتب لكي ينقذنا اللـه من الرجز الذي يحل بأبناء المعصية ، ويؤهلنا لحظ القديسين .
صلِ من أجلي أنا الخاطئ ، فإني أقول ولا أعمل ، فإنه قد كتب : ليعترف بعضكم لبعض بالخطايا ، وليصلِّ بعضكم على بعض لتشفوا ، لأنه يليق باللـه المجد إلى الدهور . آمين .